عِشْرة العَشْرة

لما رباح

مع انقضاء عشرةِ أيّام، وصل بدايتها 101 مشارك ومشاركة إلى مدينة جرش الأردنيّة، ورحلوا في ختامها أصدقاء لا غرباء؛ طوت «المدرسة الصيفيّة: الدراما في سياقٍ تعلّميّ» عامها العاشر؛ تلك التي وصفها الباحث وعضو الهيئة التدريسيّة مالك الريماوي بأنّها لم تعد فكرة أو حلماً، بل فعل ممتد، يساهم في خلق معلّمين ناشطين ومنخرطين في قضايا مجتمعهم يتحدَّون النماذج التقليديّة.

حضور وغياب

لم يقتصر حفل انطلاق المدرسة الصيفيّة على الحاضرين في القاعة، بل كان للغائبين وقعٌ ثقيلٌ على الأمسية، فبدأها وسيم الكردي، المدير الأكاديمي للمدرسة، ومدير برنامج البحث والتطوير التربوي، بتعداد أسماء المشاركين، وكلّما نادى اسماً، تجد المشاركين يتلفّتون حولهم فلا يجدون أيّاً منهم قد حرّك ساكناً، حتى بدأ بعضهم بالتمتمة قائلين إنّ هذا السجلّ الخاطئ، بينما كان الكردي يتعمّد قراءة أسماء من هم ليسوا هناك؛ مبرّراً: «هذا العام، سنفتقد أحد عشر معلماً ومعلمة من أصل 18 من قطاع غزة لن يتمكنوا من الالتحاق بالبرنامج، وسنعمل لاحقاً على بحث الكيفية التي تمكنهم من تعويض ذلك»؛ مضيفاً: من المؤسف أنّ الذي يجري حالياً في العالم العربي ألقى بظلاله الإيجابية من ناحية، بحيث فتح أسئلة الحرية والعدالة مرة أخرى، وهي ما نراه أيضاً في سياق التعليم في فلسطين والعالم العربي، وبالمقابل فإنه انعكس سلبياً على عدد من المعلمين الذين لن يتمكنوا من الانخراط معنا هذا العام بسبب إجراءات السفر المعقدة، والتأشيرات التي بات من الصعب الحصول عليها».

أمّا من حضروا فعلاً؛ فهم 101 مشارك من فلسطين، ومصر، والمغرب، وتونس، والأردن، والسودان وعُمان، بحيث تستهدف المدرسة الصيفيّة المعلّمين والمعلّمات ومربيّات مرحلة الطفولة المبكرة، وتلقّى برنامج البحث والتطوير التربويّ/مؤسسة عبد المحسن القطّان 694 طلباً للمشاركة في المدرسة منذ الإعلان عن طلبات الالتحاق في كانون الثاني 2016، وعقدت ثماني ورش لاختيار المشاركين في شهريّ نيسان وأيّار في الضفة

صورة جماعية للمشاركين في المدرسة الصيفية وطاقمها للعام 2016.

الغربية وقطاع غزة، واختير 51 مشاركاً للانضمام لمساق مستوى سنة أولى؛ و29 مشاركاً للسنة الثانية، و21 مشاركاً للسنة الثالثة، أي لمستوى نيل شهادة الدبلوم في «الدراما في سياق تعلميّ».

ولم يكن المشاركون وحدهم هم من يتحلّون بالتنوّع بخبراتهم وخلفيّاتهم الجغرافيّة؛ فتضمّ هيئة التدريس، إلى جانب الكردي والريماوي، كلاً من: بيتر أوكونر، وبراير أوكونر من نيوزيلاندا، وكوستاس أميروبوليس من اليونان، وماغي هلسون وريتشارد كيران وتيم تايلور من بريطانيا، وفيفيان طنوس ومعتصم الأطرش ويوسف الخواجا من فلسطين.

طلبة سنة أولى في مشهد ثابت للحظة مغادرتهم ملجأ متخيلاً، 2016.

حلقة من مسار مستمرّ

تعتبر المدرسة الصيفيّة جزءاً بنيوياً من برنامج طويل؛ فبعد انتهاء اللّقاء السنوي يقدّم المشاركون ملخّصاً لمساقات المدرسة الصيفيّة مدعوماً بقراءاتٍ يوفّرها برنامج البحث والتطوير التربويّ، ويلي ذلك حضور المساق الشتوي في الكتابة البحثية؛ الذي يمتد على مدار ثلاثة أيام، ويتضمن ورشاً نظرية وتطبيقية هدفها مساندة ودعم المعلمين على إنهاء متطلباتهم الأكاديميّة.

وبعد الانخراط في المساق الشتوي؛ يترتب على المعلّمين بناء مخطّط أوليّ لتجارب تعليميّة صفيّة في ضوء المساقين الصيفي والشتوي، ثم تطوير المخطّط وتطبيقه في صفوفهم، ومع نهاية نيسان من كلّ عام، يخضع عملُ المعلّمين للتقييم من قبل الهيئة الأكاديمية للمدرسة الصيفية تمهيداً للالتحاق بالمستوى التالي.

وتعدّ المدرسة الصيفيّة، بحدّ ذاتها، برنامجاً مكثّفاً يتضمن مادة نظرية وتطبيقية في مجال الدراما في التعليم، وتضمّنت هذا العام مساقات متنوّعة؛ مثل «الدراما الجماليّة: بنية الدراما وعناصرها»، و«الدراما: سياق تعلّميّ تكامليّ»، و«المستويات الخمسة لتفسير الفعل»، و«تخطيط عباءة الخبير»... إضافةً إلى ورش عملٍ مسائيّة قدّمت إحداها الناشطة الاجتماعيّة والمسرحيّة سمر دودين، وتحدّثت فيها عن تجربتها في الإخراج المسرحيّ والدراما في سياقٍ تعلّمي، وعن مصادر الإلهام والتعلّم التي ساندتها طوال مسيرتها المهنيّة وسمتها «حاضنتها الثقافيّة»، إضافة إلى عرض فيلم روشيما للمخرج الفلسطينيّ سليم أبو جبل، وندوة بعنوان «كنا وما زلنا» قدّمها الباحث المقدسيّ طارق البكري، كما تناولت آخر الورش المسائيّة موضوع كتابة نصوص الأفلام القصيرة وقدّمتها المنسقة في برنامج البحث والتطوير التربويّ ديما سقف الحيط.

جولة عبر الزمان والمكان

تفرغ الشرفةُ الواسعة المطلّة على أحراش جرش، التي يتناول فيها المشاركون وجبة الفطور، رويداً رويداً، حتى يذهب الجميع إلى القاعات في تمام التاسعة صباحاً وتصبح خاليةً تماماً.

تجد في الطابق الأرضيّ غرفة لكلٍّ من الشُعب الثلاث في مستوى السنة الأولى، وسرعان ما أصبحتْ كلٌّ من الغرفِ تشبه المعلّمين والمعلّمات الذين عاشوا فيها أيّامهم العشر، علّقوا على جدرانها رسوماتهم وكتاباتهم التي أنتجوها خلال العمل في الدراما، واختاروا أماكن جلوسهم ورتّبوا قرطاسيّتهم، بحيث يصعب عليك تخيّل أنّ هذه الغرفة كانت بيضاء باهتة، ولا تألفهم، قبل أقلّ من أسبوعيْن.

قالت المشاركة دنيا بياطرة إنّ أبرز ما تعلّمته من الأستاذ «تيلور» هو إحساسه القويّ في معرفة طلبته، وهذا ما ناقشه المشاركون أيضاً مع الباحثَيْن طنّوس والريماوي؛ انطلاقاً من سؤال «لماذا يجبُ أن نعرفَ–كمعلّمين– أطفالنا جيّداً؟».

وتتلخّص الإجابة في أنّنا نبدأ منهم ونعود إليهم؛ فحين نريد أن نخطّط للحصّة الصفّيّة يجدر بنا أن نسأل «ماذا يحبّ أطفالنا؟ وبماذا يهتمّون؟ وماذا يعرفون مسبقاً؟»، فننطلق من

موضوعة التعلّم ومن موقعهم منها وشعورهم اتّجاهها، لنجد أنفسنا في «زاوية ارتباط» تجذبهم لنبدأ الدراما منها، ونذهب «معاً» في رحلةٍ نحو المعرفة كشركاء مع الأطفال.

الشراكةُ والقُرب كانا عنوان نظرة المشارك السودانيّ مهند الحاج لمعلّمه ريتشارد كيران، فكتبَ لنا الحاج: «ريتشارد كان يؤكد طوال الوقت أنّه غير أكاديميّ، وأنّه معلم عادي مثلنا، من خلفية غير مسرحيّة، وفي البداية كنت أنظر إلى هذه التأكيدات باعتبارها كسراً لسلطة الخبير واحتكاره للمعرفة، فعلى الرغم من كونه غير خبير بالمفهوم الشائع (باحث، يحمل شهادة اختصاص ... الخ)، فإنّه يقوم بتعليمنا، إذاً فهو «خبير»، ولكن وفق تعريف آخر ينظر إلى الخبرة باعتبارها ممارسة ومشاركة وتجربة، أي أنّ الخبرة وليدة «عملية» وليست وليدة «الشهادة».

ويضيف: «ولكنّني الآن أنظر إلى قيمة التواضع الصادق التي لمستها في كلماته، أكثر من تحليل العقليّ فيه، هذا التواضع الصادق الذي تولد عنه اهتمام صادق بالتفاصيل وقيمتها المعنوية والوجدانيّة بالنسبة لنا وللأطفال. فعندما يعطينا ريتشارد مهمّة؛ يتأكّد من أخذ موافقتنا عليها، ومن ثم يطلب منا أن نؤديها باهتمام وعناية، فالاهتمام والعناية يثقلان العمل بالمعنى، وعندما يضطر ريتشارد لتنحية عمل قمنا به جانباً -لضيق المساحة مثلاً- فهو يقوم بذلك بعناية واهتمام ملهم أيضاً، كأنّه يؤكد على اهتمامنا وعنايتنا، ويثقل أعمالنا بالمعنى أكثر، ولم يقتصر الاهتمام فقط على ما ننتجه من أغراض، بل على أفكارنا وتساؤلاتنا واقتراحاتنا أيضاً».

نحن في الحقيقة نوجّههم إلى العالم الذي نختاره بوصلتنا؟».

وأجابَها بأنّه ما زال يحمل في داخله بنى وأفكاراً من معلّميه حين كان طفلاً، ويعلم بوجودها ويحاول مقاومتها في الوقت ذاته، مضيفاً: «إذا قدّمتَ نفسك في الصفّ على أنّك «صاحب القوّة والسلطة»، والوحيد الذي يملك المعرفة؛ فإنّ الأطفال سينتظرونك لتشرح لهم كلّ شيء، ولن يعبّروا عن آرائهم الحقيقيّة؛ بل سيعبّرون عن رأيك أنت».

«أنا هون، أنا هون، أنا هون»، تتعالى صيحة من غرفة في الطابقِ العلويّ من مكان انعقاد المدرسة الصيفيّة للدراما، يُخيّل للسامع أنّ أحداً يستنجد في الداخل، لولا ترديد صدى الصوت من قِبل المجموعة.

كان طلبة مستوى السنةِ الثانية في تلك الأثناء يمثّلون مشهداً لشخص عالق في متاهة تحت الأرض، ضمن دراما مبنيّة على أسطورةٍ يونانيّةٍ يضحّي فيها ملكٌ بأربعة عشر طفلاً، ويرميهم في متاهةٍ يُحكى أنّ فيها وحشاً رأسه رأس ثور، وجسمه بشريّ سيلتهمهم؛ وذلك في مساق «الدراما الجماليّة» مع «هلسون»؛ التي طورت برنامجاً تدريبيّاً للمعلّمين في المدارس في توظيف الدراما في التعليم على مدار أكثر من عشرين عاماً.

وبعد المضيّ في الدراما، وصل الطلبةُ إلى مرحلةٍ عليهم فيها أن يقرّروا -في دور أهالي المدينة التي يحكمها الملك- ما إذا كانوا سيحضرون اجتماعاً ليخلقوا حراكاً ضدّ الملك، يرفض تقليد تقديم الأبناء كقرابين، أم سيلتزمون الصمت خوفاً من الملك وأعوانه.

أمّا في القاعة الأكبر، يودّع طلبة مستوى السنة الثالثة المكان لآخر مرّة، ولكنّ أسئلتهم ونقاشاتهم في مفاهيم الدراما واستراتيجياتها لا تصل إلى نهاية، فطرحت إحدى المشاركات سؤالاً على أميروبولوس حول ما إذا كان المعلّم يستطيعُ أن يتجرّد من تحيّزاته ومعتقداته حين يطبّق الدراما في الصفّ: «ماذا لو كنّا ندعو الأطفال إلى الانفتاح نحو العالم؛ بينما

طلبة سنة ثانية في مساق «الدراما الجمالية»، 2016.

قدّم الطلبةُ مشاهد عدّة؛ في أحدها كانَ أبٌ يوبّخ ابنه ويريد أن يمنعه من حضور الاجتماع، لأنّه من المحتمل أن يفقد وظيفته جرّاء ذلك. وفي مشهدٍ آخر؛ يخبر والدٌ طفله وزوجته بأنّه قرّر الذهاب إلى الاجتماع، فتحاول عائلته الصغيرة منعه من الذهاب خوفاً على حياته، ولكنّ الأب يردّ بأنّه إن لم يرفض الظلم، لن يتوقّف بطش الملك، وعاجلاً أم آجلاً سيكون طفله هو الضحيّة التالية.

يعقد الاجتماع، ويحضر الجميع حول ضريح «المفقودين»، وبأصواتٍ خافتة يجدّد المشاركون وداعَ الأطفال الذين رحلوا، ويستذكرونهم؛ ولكنّ سرعان ما يتحوّل حزنهم إلى غضبٍ ويعلو صوتهم فتقول إحدى المشاركات: «لازم نهدم المتاهة».

- كيف؟ إحنا مش عارفين شو رح نواجه.
- لازم نتغلّب على حزننا في البداية.
- رح يقتلونا.
- فيه خيارين؛ يا بنقتل الملك يا بيقتلنا.

هذه الخيارات الصعبة لم يواجهها فقط طلبة «هلسون»، فإذا انتقلتَ إلى آخر الممرّ ستجد المشاركين أمام معضلةٍ حقيقيّة مع «أوكونر»، فهم سكّان بلدة بحريّة، وبعد أن وعدتهم امرأة قويّة تُدعى سارة بأنّها ستخلّصهم من الوحش الذي يأكل السمك -مصدر غذائهم ورزقهم- تطلب منهم أن يمنحوها طفلاً من أطفالهم مقابل المساعدة، فهل يقدّمون أطفالهم قرباناً مقابل النجاة من المجاعة؟

في الغرفة المجاورة؛ قدّم طفلٌ يابانيّ ذاكرته قرباناً للحرب، دون أن يستشيره أحد، وذلك في دراما مستلهمة من رواية «كافكا على الشاطئ» للكاتب اليابانيّ هاروكي موراكامي، خلال ورشة عملٍ مبنية على مفهوم الذاكرة كفقدانٍ وكفجوة، بإشراف وسيم الكردي؛ فخلال الحرب العالميّة الثانية في اليابان؛ فقد مجموعةٌ من الأطفال وعيهم وهم في رحلة إلى الغابات؛ واستيقظوا بعد وقتٍ قصير لا يعرف أيٌّ منهم شيئاً عمّا حدث؛ إلّا أنّ طفلاً وحيداً لم يعد إلى وعيه إلّا بعد شهورٍ وسنوات؛ وحينها كان قد فقد الذاكرة تماماً.

ابتكر طلبة مستوى السنة الثانية أغراضاً لمشاركتها مع الطفل الفاقد ذاكرته، وسردوا قصصاً حولها قد جمعتهما سوياً؛ علّه يتذكّر أيّ شيء من حياته، ولاحقاً -وبعد رسم المدينةِ المتخيّلة للقصّة على قطعة قماشٍ سوداء- تحوّل الطلبة إلى فريق خبراء أوكلت إليهم مهمّة ترميم جسر المدينة الذي تعرّض للقصف الأمريكيّ، ويعتبر أثريّاً ويحمل إرث أهل المدينة وتاريخهم؛ والأهمّ رسوماتهم ونقوشهم، فعليهم الآن-كمهندسين- أنْ يعاينوا الجسر ويرمّموه، وأن يعيدوا رسمَ النقوش ليحفظوا ذاكرة المدينة من الضياع.

طلبة سنة ثانية في نشاط «ضريح المفقودين» ضمن فعاليات المدرسة الصيفية، 2016.

طلبة سنة أولى في أحد مساقات المدرسة الصيفية، 2016.

الذاكرة التي لن نفقدها

ليس من الممكن أن تشمل الجولة في الزمان والمكان كلّ لحظات الفرح والتعلّم التي اختبرها المشاركون على مدار العشرة أيّام، أو في أعوامهم السابقة، ولم تلتقط عدساتُ كاميراتنا كلّ تلك الصداقات التي كانت تُحاك في جلساتهم وضحكاتهم ورحلاتهم ورقصهم وتأثّرهم وبكائهم.

قالت المشاركة سهاد بنّا من الناصرة: إنّ الفرصة التي توفّرها المدرسة الصيفيّة لا يوفّرها أيّ مكانٍ آخر في حياتها اليوميّة، مضيفةً: «نشعر هنا بسلام بعيدين عن ضغوطات حياتنا، وتتاح لنا الفرصة للتأمّل والتفكير برويّة، ونقابل أشخاصاً من ثقافاتٍ مختلفة فنتعلّم من التنوّع الحضاريّ».

وبدوره، قال المشارك عزّ الجعبري من الخليل إنّ تعلّم «الدراما» قد أحدث نقلة نوعيّة في حياته، فالدراما هي عالم مختلف تماماً يعمل على نقد عالمنا وعلى إعادة التفكير فيه، مؤكّداً أنّ هذه التجربة الغنيّة مهمّة جداً؛ وبخاصّة في مجال التعليم.

وذلك ما أكّده الكردي في حفل الاختتام قائلاً: «إنّ الظروف السياسيّة والإنسانيّة الحرجة التي تعيشها فلسطين والوطن العربيّ تستدعي أكثر من أن نكون معلّمين جيّدين فقط، ونحن لسنا وكلاء لتمرير المنهاج المدرسيّ، بل واجبنا أن نمكّن الأطفال من النظر إلى المنهاج بصورةٍ نقديّة، ومن بناء رؤيتهم للعالم وموقفهم من الحياة».

برنامج البحث والتطوير التربوي

وسيم الكردي يتحدث للمشاركين في الأمسية الختامية للمدرسة الصيفية، 2016.